تطور منهج الكتابة التاريخية من القرن 5ق م إلى يومنا هذا

The evolution of the historical writing method from the 5th century BC to the present day

أد/ بالحاج ناصر

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم التاريخ - جامعة غرداية

nacer.baelhadj@univ-ghardaia.edu.dz

تاريخ الإرسال: 2024/09/01 تاريخ القبول: 2024/09/15 تاريخ النشر: 2024/12/15

ملخص:

يتناول النص تطوّر منهج الكتابة التاريخية من الغرب إلى العالم الإسلامي وصولًا إلى المناهج الحديثة، مبرزًا التحولات الكبرى في فهم التاريخ وطرائق دراسته. منذ هيرودوت إلى مدرسة الحوليات، ووقوفا عند أرنولد توينبي وابن خلدون، وتطور الكتابة لدى المسلمين، حيث برز مؤرخون مثل الطبري، المسعودي، ابن الأثير، وغيرهم، حيث تنوعت مجالات التأريخ بين التراجم، الحوليات، التاريخ المحلي، وتاريخ البلدان.

تطوَّرَ البحث التاريخي المعاصر وأصبح يعتمد على علوم مساعدة كعلم الآثار، الجغرافيا، القانون، اللغات، والعلوم الاجتماعية والاقتصادية، من أجل فهم دقيق للظاهرة الإنسانية.

الكلمات المفتاحية: منهج الكتابة التاريخية، هيرودوت، ابن خلدون، مدرسة الحوليات.

Abstract:

The text treats the evolution of historical writing methods from the West to the Islamic world and up to modern approaches, highlighting major transformations in understanding history and methods of study. It traces the development from Herodotus to the Annales School, focusing on figures like Arnold Toynbee and Ibn Khaldun, as well as the advancement of historiography In the Islamic world, with prominent historians such as al-Tabari, al-Masudi, Ibn al-Athir, and others. Historical writing covered diverse areas, including biographies, chronicles, local history, and the history of countries.

Contemporary historical research has further developed, relying on auxiliary sciences such as archaeology, geography, law, languages, and social and economic sciences, to achieve a more precise understanding of human phenomena.

Keywords: Historical writing methods, Herodotus, Ibn Khaldun, Annales School.

مقدمة:

يتناول المقال تطوّر منهج الكتابة التاريخية من الغرب إلى العالم الإسلامي وصولًا إلى المناهج الحديثة، مبرزًا التحولات الكبرى في فهم التاريخ وطرائق دراسته.

في الغرب، بدأت الكتابة التاريخية مع الإغريق، خاصة هيرودوت الذي عُرف بأب التاريخ، حيث جمع بين الرواية والوصف مع حضور الأسطورة. ثم تطورت عند الرومان مع اهتمام أكبر بالتدوين الزمني والبلاغة، رغم تأثير الدين والأسطورة. ومع عصر النهضة الأوروبية، عاد المؤرخون إلى التراث الكلاسيكي بنظرة نقدية إنسانية، متحررين نسبيًا من هيمنة الكنيسة. وفي عصر التنوير، أصبح التاريخ أداة لفهم الحاضر، وبرز المنهج العقلي والعلمي مع مفكرين مثل فولتير، مونتسكيو، وجيبون، الذين ركزوا على العقل ونقد الخرافة. وفي القرن العشرين، أحدثت مدرسة الحوليات ثورة في البحث التاريخي بالتركيز على التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والذهني، ودراسة "المدى الطويل" بدل الأحداث السياسية فقط.

ويمثل أرنولد توينبي نموذجًا مميزًا في الفكر التاريخي الحديث، إذ تبنّى نظرة عالمية للحضارات بعيدًا عن المركزية الأوروبية، وفسّر نشوء الحضارات وازدهارها وانهيارها من خلال مفهوم "التحدي والاستجابة" ودور "الصفوة المبدعة"، متأثرًا بابن خلدون.

أما عند المسلمين، فقد تأثرت الكتابة التاريخية بالقرآن الكريم ومنهجه في العبرة، وأسهم المسلمون في تطوير مناهج البحث التاريخي، خاصة عبر العناية بالإسناد والتحقق من الروايات، متأثرين بعلم الحديث والجرح والتعديل. كما كتبوا عن مختلف مناطق العالم، وبرز كتاب مثل الطبري، المسعودي، ابن الأثير، وغيرهم، إضافة إلى تنوع مجالات التأريخ عندهم بين التراجم، الحوليات، التاريخ المحلي، وتاريخ البلدان.

ويُعدّ ابن خلدون علامة فارقة في الفكر التاريخي، إذ أسس منهجًا علميًا يقوم على دراسة العوامل الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية، وصاغ مفهوم "العمران البشري"، منتقدًا المبالغة والخرافة في الروايات التاريخية، ومؤكدًا على العبرة كغاية أساسية من دراسة التاريخ.

ويختم المقال بإبراز تطور البحث التاريخي المعاصر واعتماده على علوم مساعدة كعلم الآثار، الجغرافيا، القانون، اللغات، والعلوم الاجتماعية والاقتصادية، مما جعل التاريخ علمًا مركبًا يسعى إلى فهم شامل للظواهر الإنسانية عبر الزمن.

1- علم التاريخ عند الغرب من هيرودوت إلى توينبي

كان النظر في الماضي وأخباره والتحقق منها من الأمور التي شغلت بال المفكرين اليونانيين، والذين اهتموا بالبحث والتحري في أصل الأشياء، ومنها الأساطير خاصة تلك التي اقتبسوها من الحضارات السابقة لهم.

من أبرز المؤرخين اليونان: هيكاتيوس (HECATAEUS) (و. 540 ق.م.) والذي كتب خصوصا عن أصل اليونان وأنسابهم، لكن كتاباته كان فيها شيء من الخيال، وقد نقل عنه هيرودوت الكثير.

هيرودوت (HERODOTUS) (حوالي 484-425 ق.م.)، لقب بأب التاريخ، اهتم أساسا بأخبار الحروب. نظرا لتنقلاته بين مصر وشمال إفريقيا وبلاد ما بين النهرين، فقد قدّم معلومات هامّة جدّا عن هذه الأقطار، فكان بذلك سباقا في الكتابة عن الأمم والشعوب الأخرى، ولاسيما عاداتها ونظمها، رغم ما في الروايات التي نقلها -كما سمعها- من أساطير.

أمّا عند الرومان، فقد برز كذلك عدّة مؤرخين، وكان غالب اهتمامهم بتاريخ الرومان، لكن كتابات كثير منهم تأثّرت بالأسطورة والخيال، والتفسير الديني تحت تأثير الكنيسة. على الرغم من ذلك فقد ترك بعضهم أعمالا هامّة، على غرار: سالوست (SALLUST) (86-34 ق.م.) اشتهر بتأريخه لعهد يوليوس قيصر الذي عاصره، فجاءت كتاباته واقعية إلى حدّ بعيد.

تاسيتوس (TACITUS) (55-117م)، تميّز أسلوبه بالبلاغة، ومن أشهر كتاباته كتاب الحوليات « ANNALS » والذي تتبع فيه الأحداث التي عرفتها الإمبراطورية الرومانية عاما بعد عام. يوسيبوس (EUSUBUS) (265-340م)، صاحب الكتاب المعروف بالتواريخ.

عُرف عهد النهضة في أوروبا (بين القرنين 14م و16م) بالعودة إلى التراث الذي خلفه الإغريق والرومان، وإعادة إحيائه، والتركيز على الجانب الإنساني فيه في إطار ما يعرف بالحركة الإنسانية (وهي الجانب الأدبي من حركة النهضة)، مع تحرير الفكر من القيود التي كانت تكبّله، لاسيّما قيود الدين التي فرضتها الكنيسة لقرون طويلة(1). ولذلك فقد كانت عملية إعادة قراءة النصوص القديمة مصحوبة بالمقارنة والنقد والتصحيح، للتخلص من الشوائب ذلك التراث من معجزات وكرامات التصقت بها في عملية التفسير التاريخي للأحداث، بفعل تأثير رجال الكنيسة وعلماء اللاهوت طبعا. فبرز من إيطاليا: لورنزو فالا (LORENZO VALLA) (1406-1475)، ميكيافيلي (MACHIAVELLI) (1468-1527) والذي تميزت كتاباته بالطابع السياسي، حيث اعتمد على التاريخ من أجل فهم واقع إيطاليا المتشرذم والمفكك، ومن أشهر أعماله كتابه "الأمير"، وقد ركّز في كتاباته على استخلاص العوامل التاريخية التي تتحكم في التطورات التاريخية.

وفي عهد الاستنارة أو التنوير في القرن 18م، الذي عُرف بتطبيق الثقافة العلمانية في مختلف ميادين الحياة والتخلص من سلطة الدين، أصبحت العودة إلى الماضي أي التاريخ بغرض الاستفادة منه أكثر كتجربة إنسانية تزيدنا خبرة بالحاضر، فضلا عن الاهتمام بالجوانب التي طالما أُهمِلت من طرف المؤرخين السابقين الذين

(1) - هاري إلمر بارنز، تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة: محمد عبد الرحمان برج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، ج 1، ص 145.

اهتموا بسير الملوك والمشاهير وتفاصيل الحروب والمعارك ...، فأصبح التاريخ يهتم بمختلف مجالات الحياة الإنسانية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

وفي هذا الصدد يبرز دور بعض المنظرين من أصحاب المدرسة العقلانية، وعلى رأسهم الفرنسي "فولتير" (1694-1774)، بفضل دراسته للماضي ومقارنته بالحاضر الصعب الذي كانت تعيشه المجتمعات الأوروبية، ومن أشهر مؤلفاته كتاب "عصر الملك لويس الرابع عشر" (1701) الذي خالف فيه الكتابة التاريخية المألوفة آنذاك، حيث نظم كتابه تنظيما موضوعيا لا على شكل حوليات، وكذلك كتابه "مقالة في سلوك الأمم وروحها" (1756)، حيث كتبه بكلّ موضوعيّة، وليس عن أوروبا فحسب بل حتى عن المسلمين وأدوارهم الحضارية، وفي كتاباته ينتقد الخرافة والخوارق ويمجّد العقل والمنطق.

ومن روّاد المنهج العلمي في التاريخ، مونتسكيو (MONTESQUIEU) (1689-1755)، حيث اهتم بتاريخ الأمم والمجتمعات ونظمها وقوانينها، وعمل على استنباط مختلف العوامل التي تؤثر في حياة الأمم والشعوب، من طبيعية واقتصادية وغيرها، أي بمعنى دراسة التاريخ دراسة موضوعية وواقعية بعيدا عن الخرافة والتأويل.

ومن مؤرخي المدرسة العقلانية كذلك، الإنجليزي إدوارد جيبون (EDWARD GIBBON) (1737-1794)، صاحب الكتاب المشهور "إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها"، حيث انتقد فيها السياسة الدينية للكنيسة والتي اعتبرها السبب الرئيسي في اضمحلال الإمبراطورية الرومانية بسبب معاداتها للعلم والفلسفة والأدب والفنّ.

وفي القرن 19م، تطورت الكتابة التاريخية بأوروبا، حيث توجهت أكثر إلى النقد العلمي، وتجاوزت عهد الغيبيات، لكن كثيرا منها بقي متأثرا بتوجّهات سياسات الملوك والحكام والدول، لاسيما ما يتعلق منها بقضايا الاحتلال في إفريقيا وآسيا وأمريكا. كما

أنّ هذا القرن عرف اهتمام بعض المدارس التاريخية الأوروبية بالدراسات الاستشراقية على غرار المدرسة البولونية. أما القرن العشرون فقد عرف ظهور مدرسة الحوليات في فرنسا، والتي أدت إلى تغيرات عميقة في مناهج البحث التاريخي، وتجاوز تأثيرها الحدود الفرنسية إلى كامل أوروبا وخارجها كما سيأتي بيانه.

التاريخ عند أرنولد توينبي (Arnold J. Toynbee) (1889- 1970)

أرنولد توينبي مؤرّخ بريطاني، تولّى مهام سياسية أهمها هيئة "المعهد الملكي للشؤون الدولية"، وهي مهامّ ساهمت كثيرا في تكوينه العلمي، وبرز هذا التأثير في كتاباته لاسيما كتابه المشهور "دراسة للتاريخ" (A Study of History) في عشرة أجزاء ثم أضاف إليها جزءين لاحقا، نشرها جميعا فيما بين 1934 و1961، حيث يشعر القارئ بأن كتابات توني تعتمد على فهم الواقع أكثر من الماضي(2).

ويتميّز توينبي بأنّه من القلائل –من بين المؤرّخين الأوروبيّين المعاصرين له- الذين خرجوا من قوقعة "المركزيّة الأوروبيّة" في النظر إلى الحضارات الأخرى، ومنها الحضارة الإسلاميّة، فكان "يقف على مسافة واحدة من الحضارات التي مرّت بعالمنا كافة"(3). اعترف توينبي بمنجزات الحضارة الإسلامية وثمّنها، وهو يعتبر من المؤرّخين المنصفين. خلّف كتبا هامّة جدّا منها: "الفكر التاريخي عند الإغريق من هوميروس إلى هرقل" (1924)، "مستقبل الحضارة الغربية" (1949)، "تاريخ الحضارة الهيلينيّة" (1959)، وغيرها.

(2)- Derathé Robert, Les deux conceptions de l'histoire chez Arnold J. Toynbee, Revue française de science politique, 5e année, n°1, 1955, p119.

(3) - أرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، 2011، ج. 01، ص ز.

تأثّر توينبي بعدد من المفكّرين منهم خاصّة: الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون، كما تأثّر بفكر ابن خلدون، حيث ركّز في كتابه على أدوار الحضارات وهي ثلاثة: إنبعاث الحضارات، ارتقاء الحضارات، وانهيار الحضارات. كما أنّه لا يقول بتفوّق عرق على آخر. وهو يرى منشأ الحضارات من الظروف الصعبة أو التحديات الذي تنشأ عنه الاستجابة، أو التحدّي الذي يرفعه الإنسان فيقيم الحضارة على غرار الحضارة المصرية. إذا فالتحدّي الطبيعي للإنسان يرتبط بتحدّ آخر وهو تحدّ بشريّ، حيث تكون الشعوب المعرّضة للعدوان أكثر صلابة من غيرها، مع بروز دور النخبة أو ما يسمّيه توينبي "القلّة (الصفوة) المبدعة" التي تقود المجتمع بفضل أفكارها. أما عن انهيار الحضارة، فيرى توينبي أنّ إخفاق الحضارة يعود إلى إخفاق الصفوة المبدعة في قيادتها للمجتمع لأسباب يفصّلها في كتابه[4].

2- علم التاريخ عند المسلمين

بداية، احتوى القرآن الكريم على أخبار وقصص كثيرة من الأقوام السابقة والتي أثبتت الكشوف الأثريّة صحتها، وكان الغرض الأساسي من إيرادها هو أخذ العبرة، وكذلك الأمر بالنسبة للكتب السماوية الأخرى التي أوردت الكثير من القصص والروايات عن الأمم السابقة. وقد كان لهذا المنحى –لاسيّما في القرآن الكريم- أثره على الفكر الإسلامي ومنه الكتابة التاريخية.

قام المسلمون بدور كبير في تطوير مناهج البحث التاريخي، وهي من المجالات التي قدّموا فيها إضافات هامة، حيث يعدّون من أوائل الذين وضعوا القواعد للمعرفة العلمية، حيث كان لهم منهجهم الخاص بهم في تصانيفهم في التاريخ والرواية وغيرها.

[4] - أرنولد توينبي، المرجع السابق.

اهتم المسلمون بشكل خاص بالأنساب والأصول والتراجم والطبقات، وتميزوا بذلك عن غيرهم من الشعوب والأمم، كما أنهم تجاوزا الكتابة عن أنفسهم إلى كتابة تاريخ البشرية منذ البدء وإلى غاية أيامهم التي يعاصرونها، وهم بذلك أيضا تميزوا عن غيرهم من الأمم، باكتسابهم للتاريخ الموسوعي أو العالمي.

ومن أبرز العلماء المسلمين الذين برزوا في مجال الكتابة التاريخية والمجالات القريبة منه، الطبري الذي كان سباقا في مجال تدوين الحوليات التاريخية وفق التسلسل الزمني، والمسعودي الذي اهتم بالمعرفة الموسوعية للعالم، وكذلك ابن خلكان الذي صنّف في التراجم ومعرفة البلدان، وكذلك بالنسبة لابن خرداذبة في علم البلدان أيضا، وبرز الخطيب البغدادي في التاريخ المحلي، وأسّس ابن خلدون لعلم العمران البشري، وابن الأثير في فن الكتابة.

وبعرض الآثار التي تركها المؤرّخون المسلمون، فإنّه يمكن ملاحظة مجموعة من المناهج إضافة إلى ما سبق ذكره من الموسوعية في الكتابة التاريخية، أهمّها: تاريخ السير (التراجم)، الطبقات (النخب)، تاريخ الأُسر والقبائل الحاكمة، التاريخ المحلي (المدن)، تاريخ البلدان.

ولا يمكن التطرق إلى الكتابة التاريخية عند المسلمين دون التنويه بما استفادوه من علم الحديث ومنهج الجرح والتعديل[5]، وذلك في استقصاء وتقصّي نصوص الأحاديث -لاسيّما عندما كثرت الأحاديث المرويّة عن الرسول (ص)- والتحقّق من الرواة

[5]- وجيه كوثراني، تاريخ التأريخ اتجاهات- مدارس- مناهج، ط. 2، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت- لبنان، 2013، ص81.

ومصداقيّتهم في الرواية من خلال دقّتهم في الرواية، خاصّة عند عدم تطابق الروايات، فعمدوا إلى تصنيف الأحاديث إلى صحيح، وزائف مدسوس.

وأُولى كتابات المسلمين في التاريخ كانت في المغازي والسير (غزوات وسيرة الرسول (ص))، والتي حرصوا فيها على تحرّي الدقة نظرا لحساسية موضوع الكتابة وقيمته، فضلا عن احتوائها على الأحاديث النبوية، وهو ما جعل الكتابة التاريخية تتوجه أكثر إلى التحرّي عوض الرواية فحسب مثلما كان عليه الحال فيما سبق، لاسيما مع المرويّات الشفويّة التي تختلط فيها الحقائق بالأساطير فيما يعرف بـ"أيّام العرب". ومن أهمّ من كتبوا في سيرة الرسول (ص) في هذه المرحلة التاريخية الأولى، شرحبيل بن سعد (ت. 123هـ/ 740م)، ومحمد بن اسحاق (ت. 151هـ/ 768م) وكان من المشهورين بدقتهم في الرواية وممن اعتمد عليهم الطبري وابن هشام. ومن مؤرخي القرن الثاني للهجرة محمد بن عمر الواقدي (ن. 207م/ 823م) ومن مؤلفاته: "الطبقات"، "أخبار مكة"، و"فتوح الشام".

ضاع الكثير مما خلفه المؤرخون المذكورون وغيرهم، ولكنهم مهّدوا الطريق لأعمال مؤرخين آخرين أبرزهم عمل عبد الملك بن هشام (ت. 218م/ 833م) المعروف بسيرة ابن هشام، والطبري (ت. 310هـ/ 922م)، واليعقوبي (ت. 284هـ/ 797م)، والمسعودي (ت. 346هـ/ 957م)، ومسكويه (ت. 421هـ/ 1030م)، وابن الأثير (ت. 630هـ/ 1233م).

كما يبرز الواقدي (محمد بن عمر الواقدي، ت 207هـ) في كتابة التاريخ يُعدّ من أوائل المناهج التي جمعت بين الرواية الشفوية والبحث النقدي في الأخبار، خصوصًا في السيرة النبوية والمغازي، حيث يحرص على توثيق الرواية والسند في نقل الأخبار، فكان يذكر سلسلة الرواة عن الحدث، كما كان يرجح بينها ولم يكتف بالنقل. حيث استفاد

من كبار التابعين ومن عاشوا معاصري الأحداث أو من أبناء الصحابة، خاصة في المدينة المنورة، ما أعطاه قربًا من المادة التاريخية الأصلية.

هذه الطريقة جعلت مؤرخين بعده (مثل ابن سعد والطبري) يعتمدونه مصدراً أساسياً. كما كان حريصا على تحديد تواريخ الوقائع، أماكن الغزوات، أسماء المشاركين، وعددهم، وتسلسل الأحداث بدقة لافتة.

بالنسبة لنا كمغاربة من الضروري تسليط الضوء على عمل لم يلق حقه من التعريف رغم أهميته الكبيرة، وهو كتاب ابن سلام[6].

ويعتبر عمل ابن سلام الإباضي المعروف بعنوان "شرائع الإسلام" من أهم الأعمال التاريخية التي تؤرّخ لتطور منهج كتابة التاريخ لدى المسلمين، ولكن للأسف الشديد فإنّه وبالاطلاع على العديد من البحوث والأعمال المعاصرة التي تناولت تطوّر منهج البحث التاريخي عند المسلمين، فإنّ ابن سلام وكتابه شرائع الإسلام لا يكاد يذكر فيها! رغم أهمية عمله من حيث اعتماده الرواية الشفوية وتوثيق صاحبها، وحتى مكان اللقاء به وما إلى ذلك، حيث يجهل العديد من الباحثين المعاصرين ما يحتويه التراث الإباضي من رصيد في هذا المجال، فما تركه المؤرخون الإباضيون يعتبر ذو أهمية كبيرة من حيث المحتوى ومن حيث منهج التأليف، وسنعود إليه ببحث مستقل مستقبلا.

3- ابن خلدون ومنهجه في التاريخ

[6] - ابن سلام الإباضي (لواب بن سلام التوزري المزاتي) هو فقيه ومؤرخ إباضي بارز عاش في القرن الثالث الهجري (توفي بعد 273هـ/886م)، يُعد صاحب أقدم مؤلف تاريخي معروف في المغرب الإسلامي، وهو كتاب" بدء الإسلام وشرائع الدين." يُعتبر الكتاب مصدراً أساسياً لعقائد وتاريخ الإباضية في المغرب. أنظر، مجموعة مؤلفين، معجم أعلام الإباضية، دار الغرب الإسلامي، 1421هـ/ 2000م، الترجمة رقم: 760.

يعتبر عبد الرحمان ابن خلدون (732هـ/ 1332م- 808هـ/1406م) من أبرز العلماء الذين أرّخوا للحضارة الإسلامية، حيث تميّز بمنهجه العلمي الذي يقوم على دراسة كل العوامل المؤثرة على الحدث الإنساني، لاسيّما العوامل الاقتصادية والاجتماعية وكذلك العوامل الجغرافية وتأثيرها الكبير على الأحداث التاريخية. وقد تتبع تطور نظم الحكم والاقتصاد والعلوم في العالم الإسلامي، وخلص من خلال ذلك إلى مجموعة قواعد تتحكّم في "العمران البشري" دوّنها في مقدمة مُؤلَّفه المشهور "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر". وفيها يعرّف التاريخ كالآتي: "إعلم أنّه لمّا كانت حقيقة التأريخ خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال"(7).

ومن مميّزات الكتابة التاريخية عند ابن خلدون، انتقاده للمبالغة في الوصف التاريخي للأحداث الماضية من طرف كتاب عصره وبعض من سبقه، ويرجع ذلك "لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد".

ولأخذ العبرة من التاريخ –وهو الغرض الأساسي من دراسته- لابدّ من تناوله بكل ما فيه، والاستفادة من تجارب السابقين حسنها وسيئها، ولذلك سمّى كتابه المشهور "كتاب العبر".

4- البحث التاريخي في القرن العشرين وبعده

(7)- عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة: ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، 1988، ص 35.

عرفت مناهج البحث التاريخي في القرن العشرين تطورا كبيرا لعلّ الدور الهامّ فيه يعود إلى ما عرف بـ"التاريخ الجديد" التي أنشأها في أوروبا وبالتحديد في فرنسا كل من المؤرخين الشهيرين مارك بلوك (Mark Bloch) (1886-1944)، ولوسيان فيفر (Lucien Febvre) (1878- 1956). ثمّ في السبعينيات برز أحد كبار المؤرخين الفرنسيين خاصة فيرناند بروديل (Fernand Braudel) (1902- 1985)، جورج دوبي (George Duby) (1919- 1996)، جاك لوغوف (Jack Le Goff) (1924- 2014).

وقد لاقت الكثير من النقد من أنصار المدرسة التقليدية، لكن رغم ذلك فقد بلغت تأثيراتها الولايات المتحدة الأميركية واللاتينية بل وحتى اليابان والهند والصين وروسيا. ومن أبرز أعمال هؤلاء المؤرّخين العمل الجماعي الذي حمل اسم "التاريخ الجديد".

يقوم التاريخ –المنهج- الجديد على "اعتماد أنواع جديدة من المصادر (مثل دفاتر العدول والتاريخ الشفوي والتراث المادي) وسلّط عليها الضوء من زوايا جديدة بنوعية التساؤلات المطروحة ونوعية القضايا المتناولة، فلم يعد تاريخ الأمة الذي يمثله تاريخ الجنرالات والشخصيات الذائعة الصيت هو الذي يهمّ المؤرّخين، بل أقحم التاريخ الجديد كل المغيّبين والهامشيّين من خلال دراسة المتروك من المصادر والمغيّب من الفئات الاجتماعيّة: تاريخ المجانين، وتاريخ الرعاة، وتاريخ اللصوص والمومسات، وهي مواضيع كانت توصف في الماضي توصف بأنّها مواضيع خسيسة (Sujets vils) مقابلة بالمواضيع النفيسة (Sujets nobles)، فمع التاريخ الجديد أصبح هناك اهتمام بالشرائح الاجتماعية الغائبة في أكثر الحالات من النصوص المصدريّة، كالحوليات والسير والملاحم السيادية، حتى إنها أصبحت من أولوياته (...) لقد حارب التاريخ الجديد الزمن القصير لينظر إلى التاريخ من خلال الأمد الطويل، فهو لم يعد مهتمّا بالسلالات

وبعصر الشخصيّات، وإنّما بتناول الظواهر الاجتماعية والذهنية منذ فترات انبلاجها، مرورا بفترات الأوج إلى أن تذوي"[8].

هذه الفقرة الأخيرة تلخّص منهج مدرسة الحوليات في دراسة التاريخ، والذي يقوم على دراسة تاريخ الحياة البشرية اليومية بكلّ أبعادها الحقيقية، وعدم الاقتصار على التاريخ المُلَمَّع، كما يقوم كذلك على تتبّع الأسباب العميقة للظواهر التاريخية المدروسة وليس دراسة الأحداث التاريخية فحسب.

كما يعتمد التاريخ الجديد على علوم عديدة أخرى، وهي خصوصا: التاريخ وعلم الاجتماع، والاقتصاد، ...)، وكان بروز مجلة "الحوليات" في ستراسبورغ سنة 1929 مجالا هاما للتقريب بين هذه التخصّصات.

وكان لهذا المنهج تأثير كبير في مختلف أقطار العالم، رغم الانتقادات التي طالته، إلاّ أنّه بفضل ما حمله من جديد فقد استطاع اقتحام مجالات جغرافيّة وفكريّة هامّة، ونجد –مثلما تمّ عرضه آنفا- في تراثنا الإسلامي الكثير ممّا يوافق هذا التوجّه، لاسيما في منهج ابن خلدون، إلاّ أنّ الفرق بين العالمين الإسلامي والغربي، هو أنّ الغربيّين أخذوا بهذا المنهج واعتمدوه في دراساتهم، وطوّروه، بينما العالم الإسلامي لم يأخذ كثيرا بمنهج ابن خلدون !

5- العلوم المساعدة في علم التاريخ

[8] - مقدمة المترجم لكتاب:

جاك لوغوف، التاريخ الجديد، ترجمة: محمد الطاهر المنصوري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط. 1، بيروت لبنان، 2007، ص ص 12- 13.

أصبح التاريخ كتخصص يعتمد على العديد من التخصصات، والتي تقدم وسائل لفهم جيد للأحداث التاريخية، وهي بالتالي مفيدة جدا للباحث في التاريخ وفي تكوين الطالب في هذا التخصّص، وأهمّ هذه العلوم هي:

علم الآثار: والذي يدرس الآثار التي خلفتها الحضارات السابقة، وهو علم يفيد التاريخ القديم أكثر، وكذلك التاريخ الوسيط، ويهمّ خصوصا المتوجهين إلى العمل في مجال التراث.

علم الخرائط والجغرافيا: دراسة الخرائط، والجغرافيا خصوصا هي من التخصصات التي لا غنى للباحث عن الحصول على مبادئها، وهي مهمّة خصوصا للراغبين في التوجه إلى التدريس حيث تدرّس مادة الجغرافيا مع التاريخ.

القانون: حيث يدرس أساسيات في علم القانون، ويهم خاصة الدارسين للتاريخ الراغبين العمل في مجال التراث والسياحة.

اللغات: اللغات القديمة: وهي ضرورية لدراسة الحضارات السابقة مثل: اللاتينية لمن يتخصص في تاريخ أوروبا عصور وسطى، المصرية القديمة لدارس الحضارة المصرية، العثمانية أو التركية القديمة لدارس التاريخ العثماني.

أمّا اللغات الحية مثل: الانجليزية والفرنسية، وإحداها ضروري في التكوين الجامعي، تسمح بالاطلاع على الجديد من المادة العلمية، والتواصل مع الباحثين في مختلف أقطار العالم.

العلوم الاجتماعية والاقتصاد: في القرن العشرين أصبح البحث التاريخي متأثّرا كثيرا بعلم الاجتماع والاقتصاد أيضا، حيث يستفيد منها في دراسة تاريخ ظاهرة تاريخية أو اقتصادية.

خاتمة

عرف منهج الكتابة التاريخية تطوّرًا متدرّجًا منذ العصور القديمة إلى يومنا هذا، ولم يكن هذا التطوّر، وقد انتقل التاريخ عند الإغريق والرومان من مجرّد سرد للأخبار والأساطير والحروب إلى محاولات تفسيرية أكثر عقلانية، قبل أن يخضع في أوروبا الوسيطة لهيمنة التفسير الديني، ثم يتحرّر تدريجيًا مع عصر النهضة والتنوير، ليأخذ طابعًا نقديًا وعلميًا أكثر وضوحًا في القرنين التاسع عشر والعشرين. كما أبرز البحث تأثر الكتابة التاريخية لدي المسلمين بعلم الحديث، من حيث العناية بنقد الروايات والتحقّق من الأخبار.

البحث عبارة عن عرض عام يبين الخطوط العريضة لمجالات التأريخ بين كتابة التراجم، والتاريخ المحلي، وتاريخ البلدان، ومنهج ابن خلدون، ومنهج مدرسة الحوليات، حيث أصبح التاريخ يميل أكثر إلى فهم العوامل الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية المؤثرة في الظاهرة الإنسانية.

ولا يزال المنهج التاريخي بحاجة إلى التطوير بما يسهم في بناء كتابة تاريخية أكثر توازنًا وعمقًا، قادرة على فهم الماضي واستيعاب تعقيدات الحاضر.

قائمة المصادروالمراجع

باللغة العربية:

- أرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، 2011، ج. 01، ص ز.
- جاك لوغوف، التاريخ الجديد، ترجمة: محمد الطاهر المنصوري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط. 1، بيروت لبنان، 2007.

- حلمي محمدة، وعبد الرحمن صالح عبد الله، المرشد في كتابة الأبحاث، ط. 04،: دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة، جدَّة- السعودية، 1983م.
- لواب ابن سلام، كتاب فيه بدء الإسلام وشرائع الدين، تحقيق: سالم بن يعقوب، وبرنارد شفارتز، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية: بيروت، لبنان، 1986م.
- مجموعة مؤلفين، معجم أعلام الإباضية، دار الغرب الإسلامي، 1421هـ/ 2000م.
- محمد صالح ناصر، كيف تكتب بحثا جامعيا، ط.6، دار ناصر للنشر والتوزيع، الجزائر، 1435هـ/ 2014م.
- هاري إلمر بارنز، تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة: محمد عبد الرحمان برج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، ج 1.
- وجيه كوثراني، تاريخ التأريخ اتجاهات- مدارس- مناهج، ط. 2، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت- لبنان، 2013.
- **باللغة الفرنسية:**

- Derathé Robert, Les deux conceptions de l'histoire chez Arnold J. Toynbee, Revue française de science politique, 5e année, n°1, 1955.
- Marc Bloch, Apologie pour l'histoire ou métier de l'historien, Armand Colin, Paris, 2004.